مناجاة هاملت السابعة والاخيرة

صلاح نيازي
(٢٠١)

ما دمنا قد وصلنا الى مناجاة هاملت الاخيرة، فلا باس من التوقّف قليلا عند هذه الشخصية الاشكالية. قد يصعب العثور على شخصية روائيّة بغنى هاملت وعمقه وتنوع مؤهلاته من ناحية، وتمزّقاته، وحتى تناقضاته من ناحية اخرى. الغريب كلّ الغرابة، انّ كلّ دراسة نقدية جديدة تزيده تعقيدا وغموضا، فلا تدري باية زاوية من البحوث عنه تبدا، لتبسيط المسالة، لناخذ لغرض هذه المقالة، ما قاله W.H. Clemenفيه خلاصة وافية عن هاملت:

"تكشف صور هاملت المجازيّة عن اساس ثقافي متين، وعن تعدد اهتماماته وعن الفضاء الكبير لتجربته. تتردد في لغة هاملت الاستعارات المقتبسة من العلوم الطبيعية على وجه الخصوص، مما يؤكّد على قوة ملاحظته ونظرته النقديّة الموضوعية في الامور، بل انّ هاملت مطّلع تمام الاطلاع على العصور القديمة مثل الميثولوجيا الاغريقيّة، وعلى المصطلحات القانونية، وهو بالاضافة الى معرفته بالمسرح والتمثيل، كما هو معروف، فانه على معرفة بالفنون التشكيليّة ومصطلحات الصقارة والصيد، والفنون العسكريّة والتخطيط، مع طريقة عيش في الحياة هي طريقة ابناء البلاط.

اذن هو رجلٌ عسكري، ورجل بلاط، وعالم، او كما تقول اوفيليا:

"له لسان رجل دولة، وبصيرة عالم،
وسيف عسكري
وريث العرش وزهرة الشباب
انه المراة الكاملة للذوق السليم،
ومثال الفضيلة..."

تُصوّر كلّ تلك الجوانب تصويرا مجازيا فتحيلها الى وصف حيّ بواسطة تطبيقها تطبيقا مناسبا على المواقف والاشخاص والامزجة. هاملت متمكنٌ من التعبير بمستويات كثيرة، لدرجة انه يقدر على دوزنة اسلوبه، وكذلك صوره المجازيّة لتوافق الموقف، او الشخص الذي يتكلّم معه". (ص ١٠٨-١٠٩).

لكن حتى نجنيَ، بعض ثمار هذه المناجاة الاخيرة لهاملت، فقد يكون من المفيد تقديم نبذة من الممهدات الموضوعية التي سبقتها.

تتوقّت هذه المناجاة في الفصل الرابع- المشهد الرابع، اي انّ احداث المسرحية نضجت، وتفضّحت اسرارها تقريبا. لم يبقَ الا كشف الحساب. لا بد من حسم الامور. كلّ تاجيل خطلٌ خاطل. كلّ تاجيل انحراف عن المجرى الطبيعي للامور. بدات بوادر الحسم اولا حينما فاجا هاملت امّه باشرس حوار، ربما لم يشهد له تاريخ الادب مثيلا.. حوار بين ابن وامّ، لم يشهد له تاريخ الادب مثيلا. الام تزوجت من رجل قاتل، هو الملك الحالي. قتل شقيقه الملك السابق، واغتصب عرشه وزوجته، امّ هاملت. الملك الحالي عمّ هاملت وزوج امّه. علاقة ارحام ثلاثية قاتلة. كانما بحبل السرّة يشنقون بعضهم بعضا.

لنتوقّف قليلا عند هذا المشهد ذي الحوار الاشرس في تاريخ الادب.

الملكة وابنها هاملت وجها الى وجه، ومنفردين. لا اذن ثالثة بينهما. وجها الى وجه. هكذا بدت الامور لهاملت في الاقل. لا بدّ له من وضع النقاط على الحروف. لكنْ خلف الستارة، اختبا "بولونيوس" كبير مستشاري الملك، وهو والد اوفيليا، وصاحبُ اجوفِ الكلمات، يتصنّت متجسسا.

منذ البداية كان الحديث بينهما سجالا حادا في التقريع. ما من مهادنة. خافت الامّ : ما الذي سيفعله هاملت الان وهما منفردان، لا سيّما واشاعة جنونه قد بلغتها. خافت من عباراته الصريحة الجارحة. صاحت: النجدة النجدة. عندها تحركت الستارة الان. بهذاالتوقيت الرهيب تحركت. يغرز هاملت سيفه في مصدر الحركة في الستارة، فيصيح بولونيوس:"لقد قُتلت". كانت تلك اقصر جملة قالها بولونيوس في حياته. ربما كانت الجملة الصادقة الوحيدة التي قالها في اروقة البلاط. كذا قُتِلَ فعلا. استغربت الملكة. انفضح سرّ اخر من اسرارها. وذلك بانفضاح سرّ الستارة. استغربت اكثر. سيف هاملت منغرز في الستارة ولسانه منغرز في لحم قلبها:

"زنا السفاح الذي
يحجب براءة الحشمة، ويقلب
الفضيلة نفاقا
وينتزع وردة الحبّ من الجبين
الجميل للحب البرئ
ويطمغ مكانها وصمة بنات
الهوى
ويجعل مواثيق الزواج زائفة..."

(يعتقد كثير من النقاد انّ هاملت كان يشير بتعبير : "وردة الحبّ" الى اوفيليا وبراءتها)

بهذه المثابة، اتهم هاملت امّه بالزنا. ما من موارية، ما من لفّ. ما من دوران. ما من اذن ثالثة بينهما. وجها لوجه. مع ذلك، هل كانت الملكة تعلم من قبل، بنيّة الملك في قتل شقيقه؟ هل كانت لها علاقةٌ ما به؟هل هي شريكة في الجريمة؟ الشئ الوحيد الاكيد هو انّ زواجها زنا سفاح في العرف الديني. اكفهرت السماء. بهذه الحيلة الفنية الحاذقة سيُدخل شيكسبير الآلهة في المشهد الدنيوي في اكثر حالاته حيوانية وتوحشا.

قارن هاملت بين ابيه المسموم، وعمّه، الملك الحالي. ابتدا بوصف جمال ابيه، وكانه ايقونة مقدّسة:

"انظري الى هذه الصورة، والى هذه
لوحتان فنيّتان لاخوين
انظري اي جمال راكنٍ في هذا
الجبين
... انه مزيج من الآلهة، وكلّ اله
ختمه بختمه ليطمئنوا العالم
انهم خلقوا انسانا".

(الا يذكّرهذا بكلكامش وكيف اشتركت الآلهة في خلقه؟ ثمة تاثيرات مهمة لكلكامش في مسرحية هاملت سنفرد لها مقالا خاصا):

"لقد صمّمت هيئة جسمه الآلهة العظيمة
"...بعد ان خُلِق كلكامش واحسن الاله
العظيم خلقه
حباه "شمش" السماوي بالحسن
وخصّه "ادد" بالبطولة
جعل الآلهة العظام صورة كلكامش
تامّة كاملة".

(ترجمة طه باقر: ص٧٧)

لا يفوتنا انّ هاملت كان يقارن بين صورتين، لا بين انسان ميت واخر حي. الصورة هي ما يبقى من الانسان للتاريخ. عن طريق الصورتين، سيتمكن التاريخ من عقد المقارنة بينهما. بكلمات اخرى سيكون الحكم عليهما مجردا من اي غرض. وبهذا اخذ الحدث بعدا مستقبليا جديدا . وحتى يزيد من جريمة امه، نصّ على انهما اخوان، لا يفضل احدهما على الاخر الا بالملوكية. ثمّ هناك القدسية في جمال الملك المسموم، فلماذا خانته الملكة؟ امعن هاملت اكثر واكثر، في تبشيع جريرة امّه بتصوير زوجها الحالي:

"هذا هو زوجك، مثل سنبلة
مسفوعة
يصيب باليرقان شقيقه المعافى.
الك عينان
هل يمكنك ان تكفّي عن الرعي في
هذا الجبل البهيج
وتتخمي نفسك بحشائش
المستنقع العفنة
...اي شيطان اغواك
وانت تلعبين معصوبة العينين
بصر بلا بصيرة، وبصيرة بلا
بصر
سمع بلا يدين او عينين، شمّ
بدونهما جميعا..."

بينما كانت صورة الاب القتيل سماوية، اشتركت في صنعها الآلهة كدليل على انّ خلقه كان مقصودا، فان صورة شقيقه الملك الحالي، مرتبطة بالارض والماء الموبوء الراكد، ومريضة ومعدية. الاقتراب منها خطر. (لا تربط الجرباء قرب صحيحة/ خوفا على تلك الصحيحة تجرب). السنبلة تقود الى الطعام، ولكن شتان بين رعي في جبل بهيج (الاب المقتول)، وبين حشائش المستنقع العفنة، اي(الملك الحالي). ما من امرأة حتى بنصف قواها العقلية لا تفرق بين نظافة الجبل وعفونة المستنقع الا اذا كان وراءها شيطان اولا، والا اذا كانت معصوبة العينين، والا اذا تفككت حواسها واصبحت غريبة عن بعضها بعضا.

وهنت الملكة. كفّت عن المقاومة. ما من هجوم، وما من دفاع. راحت تتوسل:

"انك تدير عينيّ الى صميم
روحي
وهناك ارى بقعا سودا
ومتاصلة
ولن تمّحي صبغتها

هكذا رات عينا الملكة لاوّل مرّة، اشياء لم ترها في حياتها. انتهى العالم الخارجي حواليها، وابتدأ عالمها الداخلي وفي صميمه بقع سود، كيف تمّحي؟

نجح اذن هاملت. تكلّل مسعاه. قال لها في الفصل الثالث –المشهد الرابع:

"...لا، لا، واجلسي، لن تتحركي
لن تذهبي الى ان اثبت امامك
مراة
حيثُ قد تريْن اعماق روحك"

رات الملكة اعماق روحها، ببقع سود ثابتة لا تمّحي. الوصمة في الجبين والبقع في الروح، كلاهما لا يمحي.

في هذا التوقيت يدخل الشبح. يراه هاملت ويتخاطب معه. الملكة لا تراه ولا تسمعه. تاكّدت الملكة من جنون هاملت الان.

يبدا الفصل الرابع بحوار بين الملك والملكة. الملك متعطش لكل كلمة عن هاملت، رغم انّه حسم امره وقرر تسفيره الى ملك انكلترا مع رسالة توصي بقتله فورا. تقول له الملكة:

"مجنون مثلما البحر والريح
يتباريان
ايهما الاقوى، وفي نوبته الجامحة
راى شيئا يتحرك وراء الستارة
فطعنه بسيفه..."

يبدو انّ الملكة استبقت الاحداث بالعقل الباطن ، فصورت بكلمتي : البحر والريح، الرحلة البحرية التي سيختبرها هاملت. اما يتباريان فربما توحي بانها رحلة بحرية غير مضمونة. بالاضافة الى انها تصور الصراع الذي يعاني منه هاملت داخليا.

على اية حال، جنون هاملت على لسان امه اعطى للملك ذريعة اخرى لنفي هاملت من مملكته.

يُقاد هاملت الى الباخرة، ومعه رسالة موته. اثناء ذلك يمرّ امير نرويجي على راس حملة عسكرية لمحاربة البولنديين من اجل قطعة حدودية لا قيمة لها، وهي لا تكفي حتى لدفن القتلى من الجانبين. اعجب هاملت من اصرار هذا الشاب. يجيب قائد الحملة عن تساؤلات هاملت:

"اقول لك بصدق، وبلا مبالغة،
نحن ذاهبون للأستيلاء على رقعة
صغيرة،
ما من قيمة لها، ولكنّها تعود
علينا بالصيت
لا استاجرها بخمس "دوكات"
انها لن تدرّ على ملك النرويج او
ملك بولندا
مبلغا اعلى، انْ هي بيعت كملكية
دائمة
هاملت: اذن فالبولنديّون لن يُدافعوا
عنها
القائد : نعم انها فعلا محصنة
بالجنود المسلحين."

ملاحظات في الشعر

فتنة باريس

عبدالزهرة زكي

في ستينيات بيروت الشعرية،قبلها وبعدها أيضا ، كانت التجارب الشعرية الفرنسية مصدر الهام التحديث الشعري العربي هناك ودليله والنموذج الذي سعت جهود كثير من الشعراء إلى التشبه به وإعادة إنتاجه وحتى استعارة منطلقاته النظرية وتبنيها من دونما أي شعور بالحاجة إلى التفكر الخاص بالطبيعة الخاصة للشعر العربي وخصوصية مشكلاته ومشكلات اللغة والفوارق الجوهرية بين لغتين ،عربية وفرنسية، وظلال هذه الفوارق على الشعر ومشكلات الشعر. لم تكن ثمة حاجة لدى الشعراء وغواة الشعر إلى ما سماه بعد ذلك بأكثر من عقد محمد عابد الجابري ، المشتغل في ميدان ثقافي آخر غير ميدان الشعر والأدب ، تبييء المفاهيم ، أي العمل على نقل المفهوم الغربي إلى الثقافة العربية عبر عملية تحويلية تجعل منه عنصرا منسجما في البيئة الجديدة التي يراد له ان يشتغل فيها.

كانت طبيعة بيروت ، تحت تأثير افتتانها بباريس، تسمح بتلك التشبهات وتلك النقولات غير المنضبطة بأي وازع سوى وازع الرغبة المطلقة بالتغيير ، تغيير الشعر وتحويله والعمل بإمكانات شعرية قليلة وبهيمنة كبيرة للفوضى وسوء استخدام الحرية والعبث بالشعر.

لقد أسهم في استشراء مثل هذه الظواهر حاجة الشعر العربي الحقيقية إلى التغيير..كما أسهمت فيها الادعاءات النظرية الفضفاضة التي تكرس صيغا إنشائية مجانية يحتملها الشعر وأحلام الشعراء في التغيير.فالجمود الشعري الذي استغرق قرونا والكسل الفكري الشعري والأدبي المصاحب لذلك الجمود،واستحالة الشعر وتقاليده إلى عقيدة جامدة وصارمة تلتزم التقليد والتكرار والثبات ومحدودية الإغراض والموضوعات أسهما في تغييب أية إمكانية لنمو وتقدم طبيعيين في الشعر العربي،يكون تطور وتغير الشعر معهما استجابة لحاجات داخلية حقيقية وانتظاما في نسق بنائي وتاريخي أصيل.

ثمة مفهوم تعرض من موقع الحداثة إلى النقد والتجديف أكثر من مفهوم الأصالة الذي بات مرادفا للجمود والتمنع والدوغمائية

لا تتعارض هذه الأصالة مع إمكانات التفاعل والاغتناء من الثقافات الأخرى،من الشعر الآخر. وقدم الشعر العربي في فترات كثيرة من مراحل تقدمه إشكالا مختلفة للتفاعل والتأثر بالشعر القادم من أقوام وثقافات أخرى،بل أن الفكر المجرد،وليس الشعر الآخر تحديدا،كان مصدرا لشعر وثقافة غير واحد من الشعراء العرب القدامى.

لاتعمل الأصالة ككابح للتطلعات.إنما هي،وعند تخففها من الطابع العقائدي الذي كثيرا ما يستحوذ على نشاطها ويقيده،تفرض التطلع إلى خارجها ومراقبة وتقويم نفسها انطلاقا من ذلك الخارج.

ليس ثمة مفهوم تعرض من موقع الحداثة إلى النقد والتجديف أكثر من مفهوم الأصالة الذي بات مرادفا للجمود والتمنع والدوغمائية..وليس ثمة مفهوم تعرض من موقع القدامة إلى النقد والتجديف أكثر من مفهوم التأثر،التأثر بالآخر وبشعره وثقافته.

لقد عمل الموقعان في تعارضهما انطلاقا من رؤية أيديولوجية متعصبة عمياء.وكان من نتاج هذه الرؤية العمياء هذا الكثير من التلفيق الشعري:السائب باسم الحداثة وهويتها،والمحنط باسم الأصالة وتابواتها.

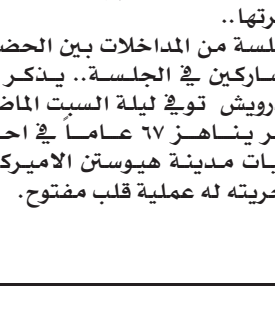

اقامها اتحاد الادباء

ادباء العراق يؤبنون محمود درويش

مازن لطيف

تحت شعار " محمود درويش إلى دار الخلود ليس رثاءً بل تكريماً لصوت شعري عربي مقاوم " أقام إتحاد الأدباء والكتاب في العراق اصبوحة جديدة من اصبوحات البرنامج الثقافي للاتحاد يوم الاربعاء الماضي المصادف ١٣ آب ٢٠٠٨ .. أدار الجلسة الناقد علي حسن الفواز حيث بدأ الحديث عن الشاعر الفقيد محمود درويش قائلاً : بالأمس هبط واحد من رموزنا الثقافية ، واحد من الذين علمونا كثيراً والذين أسسوا أرواحنا بالحلم، واحد من الذين ارتبكنا امامهم ، نحن الاطفال الذين نلثغ بالشعر.. هبط محمود درويش من فرسه الذي تجولَ به طوال أربعين عاماً ، محمود درويش مات هكذا قالت الاخبار ونحن الذين كنا نؤمن أن محمود درويش ضاج بالحياة حتى الهوس ضاج بالحلم حد الاشتعال ضاج بالأمل والثورة والحرية والصوت حتى السيولة .. كان درويش شاعراً كونياً ، هو لم يكن فلسطينياً فقط ولم يكن عربياً فقط ولم يكن شرق اوسطياً فقد انه جزء من هذا الامتداد الكوني الذي جعل من درويش ظاهرة ثقافية شعرية ، أنه شاعر بإمتياز الرئيس هو رئيس في كل شيء ، رئيس في الشعر ، رئيس في الثورة ، رئيس في الحلم وربما هذه الرئاسة هي الإستثنائية هي التي اكتسبها محمود درويش هي التي جعلتنا نتعاطى معه مثلما نتعاطى مع رمز يومي ، رمز إخلاق وليس رمزاً شعرياً فقط . بعدها طلب رئيس الجلسة من الادباء والكتاب الحاضرين الوقوف دقيقية حداد على الشاعر الفقيد محمود درويش..بعدها جاء دور الناقد فاضل ثامر رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق ليتحدث عن دور محمود درويش الشعري والنضالي معتبراً إن ظهور درويش في الثقافية العربية كان مثل إنبثاق شهاب من أعناق الظلمة في مرحلة دقيقة وصعبة من مراحل تأريخنا الثقافي والسياسي.. ظهر محمود درويش مع عدد من شعراء المقاومة عندما أثرت حرب الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ عن هزيمة مذلة للأنظمة العربية وليس للأمة العربية، وقد ذكر الناقد فاضل ثامر ان درويش استطاع من حالة الغليان الشعبي والجماهيري، حالة التعاطف مع الثورة الفلسطينية وقضية النضال الوطني العربي في تلك المرحلة.. وعن ظاهرة درويش الشعرية تحدث الناقد فاضل ان درويش إستطاع ان يؤكد لتقاليد شعرية أصيلة لصيقة بتجربته بحيث جعلت منه مدرسة في الثقافة العربية وفي الشعر العربي تحديداً ، أستطاع ان يقتنص القارىء او المتلقي في شباكه من خلال الاعتماد على مستويات معينة أعتماداً على مايسمى علمية التلقي السمعي، وبدأ يشتغل على بنية شعرية عميقة جداً.. بعد ذلك تحدث الشاعر نصير فليح عن تجربة درويش الشعرية مؤكداً إن القراءة المتمعنة والمتفحصة في شعر درويش سوف تقود القارىء الى تمييز بدايته التي كانت متواضعة نوعاً ما ومراحل التطور والتحولات ، قراءة من هذا النوع تندرج ضمن نوع من الوفاء الفني للشاعر .. وفي قراة لقصيدته المهداة الى الشاعر محمود درويش " الأمكنة تخون ذاكرتها سريعاً" قرأ الشاعر احمد عبد السادة قصيدته التي مطلعها :

مثلما تبدل عارضة الأزياء..
فستاناً بواحد آخر
تبدل الأمكنة ذاكرتها
وتنسى الخطوات التي عبرت
تحت أقواس أسمائها
الخطوات التي أودعت ..
في عيون الكاميرات
ملامح ضوئها المخطوف كبرق
تبجل ذاكرتها..

خلت الجلسة من المداخلات بين الحضور وبين المشاركين في الجلسة.. يذكر ان الشاعر درويش توفي ليلة السبت الماضي عن عمر يناهز ٦٧ عاماً في احد مستشفيات مدينة هيوستن الاميركية بعد ان اجريته له عملية قلب مفتوح.